دراسات إسلامية

كبار الزنادقة فى الاسلام

للأستاذ عبد الرحمن بدوى

رجحنا فى العدد الماضى من الرسالة أن تكون الزندقة التى عناها المهدى والهادى فى هذه الاضطهادات العنيفة التى قاما بها بين سنة ١٦٣ وسنة ١٧٠ هى المانوية ، وأن يكون هؤلاء الذين اتهموا بالزندقة ممن كانوا يقولون بأن للعالم أصلين قديمين هما النور والظلمة ويحرمون ذبح الحيوان واللحم إلى آخر هذه المبادىء التى أعلنها مانى مؤسس مذهب المانوية .

ولكن هذا لم يمنعنا أن نقول كذلك إن معنى الزندقة قد اتسع وامتد حتى أصبح يشمل أشياء أخرى لم يكن للمانوية بها صلة ولا سبب . ولم يكن هذا الاتساع وليد السنوات التالية والقرنين الثالث والرابع فحسب ، بل بدأ من قبل ، فى هذه الفترة عينها التى مضت فيها السنوات الأخيرة من خلافة المهدى وسنوات خلافة الهادى كلها .

ولا سبيل لمعرفة نواحى هذا الاتساع ، وكيف تشعّب وتنوّع ، فكانت فيه فروق ودقائق ، إلا بدراسة كبار الزنادقة والتحدث عنهم .

والزنادقة طوائف وأنواع ، والدوافع التى حدت بهم إلى الزندقة كثيرة متعددة . أما طوائفهم فنستطيع أن نحصرها فى ثلاث : الأولى طائفة هؤلاء الذين يسميهم صاحب « الفهرست » رؤساء المانية فى الإسلام ؛ والثانية طائفة المتكلمين ؛ والثالثة طائفة الأدباء من كتاب وشعراء . والدوافع تكاد ترجع كلها إلى ثلاثة أيضاً : فمن هؤلاء الزنادقة من كانوا يؤمنون بالزندقة (ونقصد بها هنا المانوية) إيماناً صحيحاً صادراً عن رغبة دينية صادقة ، فكانوا مخلصين فى اتخاذها مذهباً ، حريصين عليها كأشد ما يكون الحرص

ومنهم من وجد فى الزندقة (بمعنى المانوية أيضاً) تراثاً قومياً خلفه الآباء فيجب الحرص عليه وتعهده ؛ لا لصلاحيته فى ذاته ، ولا لأنه يستحق الإيمان به كما هو ، وإنما لأن فى هذا الحرص وذلك التعهد نوعاً من الإرضاء للنعرة القومية ، والإشباع للنزعة الشعوبية . وفيها أيضاً موضع للمفاخرة ومجال لكى يقارنوا به تراث العرب ودين العرب بما خلفه لهم الآباء من تراث ودين . ومن أجل هذا كان جميع هؤلاء من الموالى الفرس . وبين هؤلاء وهؤلاء وجدت طائفة من الزنادقة كانت تتخذ من الزندقة وسيلة من وسائل العبث الفكرى التى يلجأ إليها الشكاك دائماً ، يرومون من ورائها أن يعبثوا بعقائد الناس ، بأن يعقدوا حلبات النضال بينها ، ويساعدوا الضعيف منها على القوى السائد ، ويظهروا ميلهم إلى الأول ؛ وكل هذا لا شىء إلا ليجدوا السلوى حيث لا سلوى ، ويعثروا على العزاء وليس ثم عزاء . فهى حالة نفسية عنيفة تتملكهم فتدفعهم إلى ما هو أشبه باللهو الفكرى والمجون الشكى منه إلى شىء آخر .

وتكاد الطوائف والدوافع يقابل بعضها بعضاً تمام المقابلة . فالطائفة الأولى ، ونعنى بها طائفة رؤساء المانوية (أو المانية فالمعنى واحد) ، يغلب على دوافع أصحابها الإيمان بها إيماناً صادقاً ، وهذا هو الأليق بأن يكون عليه الرؤساء . والطائفة الثانية يغلب على أصحابها الدافع الأخير ، دافع الشك الفكرى والفكر المتشكك ، ولا عجب فهم متكلمون أى إنهم رجال فكر وأصحاب مذاهب ومقالات يعتمدون على الأفكار والعقل ، دون المصالح أو الإيمان . والطائفة الثالثة ، وإن كان للدافع الثانى أثر كبير فى اتخاذها الزندقة ، إلا أن أعظم دافع أثر فيها كان نزعة الشعوبية . وليس

والخساسة فى العداوة والإجرام ؛ فإن الرجل من عامة الناس أو أشباه العامة يرى بين الخاصة والعظماء المشتغلين بالسياسة من يستبيح كل وسيلة مهما كانت مرذولة، فيبيح لنفسه فى أمور المعاش واللهو والتلذذ بالكيد ما تبيحه السياسة فى الأمور العامة، ويصير نشر الدعوة الكاذبة فى أمور السياسة خطة يتأثرها الناس فى أمور المعاش أو اللهو أو الغرور، ويصير التحزب ونصرة الجماعة بالحق وبالباطل فى أمور السياسة عادة يتبعها الناس ويغالون فى باطلها فى أحقر الأمور وأصغرها أو فى أبعد الأمور عن تلك الخطط والعادات وأقلها حاجة إليها وأكثرها فساداً بها، ويكون فسادها أعظم والمغالاة بها أشد فى البيئات التى تعودت فى تاريخها التخاذل فى الحق والتحزب والتقاتل فى أتفه الأمور أو أجلها وأبعدها عن التحزب بالباطل .

عبد الرحمن شكرى

هذا بغريب فالشعراء والكتاب لا يستهويهم الإيمان ، ولا قبل لهم بالإيمان فى الشك الفكرى، وإنما تستهويهم الأحداث العنيفة التي تلهب عواطفهم وتثير ثائرة خيالهم ، وليس أدعى إلى إلهاب العاطفة وإثارة الخيال من نزعة الشعوبية ؛ أولاً لأنها تتصل بالسياسة وأحداثها ، والنزاع القائم بين طائفة وطائفة أخرى . وثانياً لأن الشعوبية تذكرهم بمجد تالد يعتزون به ، ويتغنون بعظمته . والشعراء يميلون دائماً إلى التغنى بالماضى سواء بالافتخار به أو البكاء عليه ، لأن الماضى زمن قد فات ولم يعد له وجود إلا فى الذاكرة التى تعيه ، فيستطيع الخيال أن يشكله على النحو الذى يبغيه ، وأن يتصرف فيه كما أراد وحيثما شاء ، وهو مطمئن آمن . بينما الحاضر يحدق فى عينه فلا يستطيع أن يزور فيه أو يكذب عليه فى أثناء وجوده !

والآن فلنتحدث عن أشهر رجال هذه الطوائف

أما الطائفة الأولى فأشهر رجالها أبو على سعيد ، وأبو على رجاء ، وأبو يحيى ويزدانبخت . وقد استطاع الأستاذ قيدا صاحب المقال الذى أشرنا إليه والذى نعتمد عليه كثيراً فى مقالنا هذا ، أن يعثر على اثنين منهم فى المصادر الأخرى فى يقين . ثم حاول أن يتعرف إلى آخر ثالث

فأبو على سعيد ذكره الشهرستانى[1] الذى يقول عنه إنه كان فى أيام خلافة المعتمد وكان يكتب فى سنة ٢٧١ هـ

ويزدانبخت ذكره أحمد بن يحيى المرتضى ، كمؤلف لكتاب أخذ عنه المرتضى نظرية تتابع الأنبياء . ويحاول قيدا أن يجد أبا على رجاء فى شخص ذكره الجاحظ فى كتاب الحيوان[2] حينما أشار إلى أنه جرت مناظرة فى حضرة المأمون بين محمد بن الجهم والعتبى والقاسم بن سيار من جهة وبين أبى على الزنديق . فلما لم يفلح هؤلاء فى مناظرة الزنديق قام المأمون نفسه بمناظرته فألقى عليه سؤالاً أفحمه ولكن الزنديق لم يرجع عن خطئه ومات على دينه . ولكى يثبت قيدا صحة هذا الافتراض ، ونعنى به أن أبا على المذكور فى رواية الجاحظ هو أبو على رجاء . قال إن هذا الزنديق لا يمكن أن يكون أبا على سعيداً، الذى ذكرناه آنفاً لأن أبا على سعيداً كان يكتب وكان حيًّا فى سنة ٢٧١ ، بينما الجاحظ الذى مات سنة ٢٥٥ يتحدث عن أبى على صاحبنا ، باعتباره ميتاً . وعلى ذلك فليس هناك من مانع ، اللهم إلا إذا ورد دليل مخالف ، أن نفترض أن الزنديق الذى ذكره الجاحظ هو أبو على رجاء الذى ذكره ابن النديم

أما الزنادقة من المتكلمين فأشهرهم ابن طالوت ونعمان ، اللذان كانا أستاذى ابن الراوندى الزنديق المشهور ، كما كان من أساتذته أيضاً أبو شاكر الذى يذكر عنه الخياط أنه كان متصلاً بهشام بن الحكم ، المتكلم الشيعى المعروف . ويرى قيدا أن الرابطة بين أساتذة ابن الراوندى الثلاثة هؤلاء يظهر أنها كانت التغالى فى التشيع . وهذا كان كافياً لكى توضع أسماؤهم بين أسماء الزنادقة. ويضاف إلى هؤلاء جميعاً صالح بن عبد القدوس . وقد أشرنا من قبل إلى البحث الذى كتبه جولد تسيهر وعسى أن تتاح لنا فرصة قريبة للتحدث عن هذا البحث

وهم جميعاً إما بعيدون عن المانوية أو أن معلوماتنا عن مبادئهم الدينية ضئيلة جداً . ولكن هناك شخصية أخرى بين الزنادقة من المتكلمين نعرف عنها بعض الأشياء ونعنى بها شخصية عبد الكريم بن أبى العوجاء . ولا نتعرض هنا للكلام عنه كمحدث أسرف فى اختراع الأحاديث ووضع المكذوب منها ، ولا عن صلته بحسن البصرى وجعفر الصادق، وإنما يعنينا هنا أن نقول عنه شيئاً يتصل بزندقته فنقول إنه كان كما يقول البغدادى[1] مانوياً يؤمن بالتناسخ ويميل إلى مذهب الرافضة ويقول بالقدر . ويتخذ من شرح سيرة مانى وسيلة للدعوة وتشكيك الناس فى عقائدهم ويتحدث فى التعديل والتجوير ، كما ذكر البيرونى فى كتاب « الهند[2] »

ولكن أظهر شخصية فى هؤلاء المتكلمين الزنادقة بعد شخصية ابن الراوندى (الذى نؤجل الحديث عنه إلى أن نفرد له فصلاً خاصاً إن كان هناك ثم مجال) ، هى شخصية أبى عيسى الوراق وقد كان هو أيضاً أستاذاً لابن الراوندى

كان أبو عيسى الوراق معتزلياً فى البدء ولكن المعتزلة طردته

(١) الملل والنحل ، طبع كيورتن ص ١٩٢

(٢) الحيوان ج ٤ ص ١٤١ وما بعدها

(١) الفرق بين الفرق ص ٣٤٩ وما بعدها

(٢) ما للهند من مقولة ص ١٣٢

لآراء له ذكرها خصومه ولسنا نعرف مبلغ صحتها على وجه التحقيق فيذكرون عنه أنه كان شيعياً رافضياً ، ويقول عنه الخياط إنه كان مانوياً يقول بأزلية المبدأين (النور والظلمة) ويعتقد فى خلود الأجسام ؛ والخياط معتزلى فهو خصم لأبى عيسى . ومن هنا لا نستطيع أن نؤكد تماماً أنه كان مانوياً . ولذلك فإن الأستاذ ماسينيون[1] يميل إلى وصفه بالناقد المستقل الفكر »

وهنا ننتهى من الكلام عن الطائفة الثانية وننتقل إلى الطائفة الثالثة ونعنى بها طائفة الأدباء والشعراء

وأول هؤلاء وأشهرهم من غير شك بشار بن برد ، ولكنا لا نستطيع هنا أن نفصل القول فى زندقة بشار ، ويكفينا الآن أن نقول إن نزعة الشعوبية عند بشار كانت أكبر دافع له على الزندقة كما كان للعبث والمجون الذى طبع عليه بشار ، وروح التشاؤم والسخرية من الناس أثر فى هذه الزندقة غير منكور . وهنا نلاحظ بإزاء بشار ما لاحظناه من قبل عند الكلام عن ابن أبى العوجاء وأبى عيسى الوراق من أن الاتهام بالزندقة كان يسير جنباً إلى جنب مع الانتساب إلى مذهب الرافضة كما لاحظ الأستاذ فيدا بحق ، ومن هنا كان الشك فى معنى هذه الزندقة التى تنسب إلى بشار ؛ ولذلك يميل الأستاذ فيدا إلى أن يرى فى بشار شاكاً من الشكاك فحسب

ولكن زندقة خصم بشار ، ونعنى به حماد عجرد ، أظهر بكثير من زندقة بشار . وعلى الرغم من أنه لا يمكن القطع بشىء فيما يتصل بعلاقته بالمانوية إلا أنه يمكن اعتباره ممن كانت لهم نزعة مانوية واضحة ، خصوصاً إذا لاحظنا أن شعره وقصائده كان يتغنى بها فى دوائر أتباع ماني وتستعمل فى الصلوات

أما حظ النزعة الشعوبية فى تكوين الزندقة فلم يكن كبيراً فى شاعر من الشعراء أو كاتب من الكتاب بقدر ما كان عند إبان بن عبد الحميد اللاحقى . فقد كان يعرف الفارسية ويترجم عنها ؛ وكان على اطلاع وسعة علم بأدب الفرس القديم ، فكان ذلك داعياً له إلى التعلق بتراث الفرس والتغنى به فى جميع مظاهره . ولكن هذا ليس دليلاً قاطعاً على أنه كان مانويا حقاً ، أو أنه اعتنق المانوية كدين أخلص (؟) على الرغم مما ذكره أبو نواس عنه فى إحدى القصائد التى هجاه بها فاتهمه بأنه كان حسياً لا يؤمن إلا بما يراه فلا يعتقد إذن بالجن ولا بالملائكة . وهذه التهمة عينها قد وجهت إلى بشار من قبل . واتهمه أيضاً بأنه أشاد بمانى وسخر من المسيح وموسى . وهنا يبدو الخلط والاضطراب فى كلام أبى نواس لأنه إذا كان مانوياً فلن يسخر من المسيح . والصلة بين المانوية والمسيحية كبيرة واضحة لا تسمح بهذه السخرية. ونرجح نحن أن السبب الأكبر فى اتهام إبان بالزندقة كان نزعته الشعوبية الواضحة فاتخذ أنصار العربية من اتهامه بالزندقة سلاحاً يستعملونه ضده فى الخصومة الحضارية بين الشعوبية والعربية

وهؤلاء الشعراء الثلاثة قد اتفقوا جميعاً فى غلبة روح الاستخفاف والعبث فيهم . ولذلك فإن أبا نواس كان صادقاً حقاً فى تسميتهم « بعصابة المجان » ولو أنه كان فرداً من أفراد هذه العصابة ! فهم أقرب إلى الشك والمجون إذن من الإيمان والجد وهم أولى باسم الشكاك العابثين من اسم الزنادقة المخلصين

وأكثر من هؤلاء جداً وأبعدهم عن العبث والمجون أبو العتاهية . وقد لخص الأستاذ فيدا آراء أبى العتاهية أحسن التلخيص فقال : إن أول ما نلاحظه فى معتقدات أبى العتاهية أنه كان يؤمن بالأثينية بكل صراحة . فالعالم الظاهر مكون من جوهرين متعارضين ، والوجود تنازعه طبقتان إحداهما خيرة والأخرى شريرة . وهو يرجع الوجود كله فى النهاية إلى الجوهرين المتعارضين اللذين نشأ عنهما العالم وتكوّن . غير أن أبا العتاهية صاغ نظريانه الأثينية فى صيغة واحدية ، إذ جعل الله الواحد عند بدء الأشياء وقال : إنه خالق الجوهرين وأن العالم ما كان له أن يوجد بدون الله وحده . طارحاً بذلك أسطورة الخليط الأزلى بين الجوهرين أو المبدأين ونعنى بهما النور والظلمة

* * *

وهنا نقف قليلاً بعد أن استعرضنا كبار الزنادقة وشرحنا كيف كانوا موضعاً للاضطهاد فى أيام الخلفاء العباسيين الأول لكى نتبين ما وصلنا إليه من نتائج

فنلاحظ أولاً أن الزنادقة الذين وجه إليهم الخلفاء ما وجهوه من اضطهاد كانوا مانوية إما بتحولهم عن الإسلام أو منذ ولادتهم

(١) Massignon, EI, article zindik

فى الفترة ما بين سنة ١٦٣ و ١٧٠ . أما بعد ذلك فإنا لم نستطع أن نثبت المانوية لواحد ممن اتهموا بالزندقة ، اللهم إلا لعبد الكريم ابن أبى العوجاء . أما الآخرون فلم نستطع أن نفصل فى أمرهم فصلاً أخيراً

ثم نلاحظ كذلك أن الزنادقة كانوا فى أماكن عديدة فكانوا فى بغداد وفى حلب وفى مكة ، ثم فى البصرة والكوفة على وجه الخصوص .

وإن أشهر ما كان يوجه إليهم من تهم هو ترك الفرائض (كالصوم والصلاة والحج) ، ثم ادعاء الشعراء منهم والكتاب أنهم يستطيعون أن يكتبوا خيراً من القرآن ؛ وأخيراً موقفهم بإزاء وحدانية الله

وأنه كانت هناك رابطة بين الزندقة والشيعة، قد رأينا كيف كان الانتساب إلى الشيعة الرافضة دليلاً على الزندقة وداعياً إلى الاتهام بها

ونلاحظ أخيراً أن الكثير من كبار الزنادقة قد قضوا شبابهم وأوائل حياتهم فى أواخر أيام الدولة الأموية . فيجب أن نستنتج كما يقول الأستاذ فيدا : « أنه للكشف عن أصل التأثيرات الإيرانية التى لعبت دوراً خطيراً منذ ظهور الدولة الجديدة (أى الدولة العباسية) فلا بد من البحث فى الأوساط العلمية العقلية فى داخل خراسان وبين أعوان أبى مسلم الخراسانى السريين كما نبحث عنه فى البصرة والكوفة » فى منطقة خراسان التقت جملة حضارات مختلفة فى طابعها . فكان فيها فى أواخر الدولة الأموية حركة صراع فكرى بين عدة حضارات . وكان لهذا الصراع الفكرى أكبر الأثر فى تكوين العقلية الجديدة التى سادت العصر العباسى أو الجزء الأول منه على أقل تقدير . ولن نستطيع أن نفهم هذه العقلية الجديدة وتطورها طوال ذلك العصر إلا إذا درسنا هذا الوسط الذى اصطدمت فيه العقليات المختلفة واختمرت فيه بذور الحياة العقلية التى جعلت من العصر العباسى الأول عصراً من أخصب العصور الفكرية فى تاريخ العالم كله .

عبد الرحمن بدوى

ما أسعد السفر بالطائرة
سافروا سافروا جميعاً إلى مصيفكم

سفراً سريعاً مريحاً فى هواء عليل وجو لطيف بأجر معتدل بطائرات

شركة مصر للطيران